المسلمين بحجة انهم هجموا على الجنود الانكليزية!! وقد أثمت الدول وضم القواعد الاساسية لحكومة الجزيرة وسيجردن المسيحيين من السلاح وانا نكتب هذه السطور والقلب يضطرب والاعضاء ترتجف والروح تناجي جبار السموات والارض بأن يهبنا حكمة وسدادا وقوة واستعدادا وصلاحا واصلاحا تحول بيننا وبين طمع الطامعين وتمنعنا من كيد الحاقدين وما ذلك على الله بعزيز

ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا

﴿ فأضلونا السبيلا ﴾ (*)

الخلافة الاموية في الاندلس والخلافة الفاطمية في مصر

٢

أثبتنا في العددين السابقين مجملا من خبر الخلافة الاموية والخلافة العباسية وألمعنا الى أن عدم سير الخلفاء بهذا المنصب العظيم على منهاجه الشرعي هو الذي قوض دعائم السلطة الاسلامية ورمى المسلمين بالفشل والوهن ، وأشرنا الى تعداد الخلافة ونذكر في هذا العدد مجملا من خبر الخلافة الاموية في الاندلس والخلافة الفاطمية في مصر وما يتبعها ونختمه بذكر الخلافة التركية فنقول

كان بعد بلاد الاندلس « اسبانيا » عن مركز الخلافة مع صعوبة المواصلات سببا في اختلال النظام وجرأ لولاتها وحكامها على تكليف الرعية فيها فوق وسعهم وكان من ثم من القبائل الحميرية والشامية والعراقية

(*) فاتحة العدد الخامس والثلاثين الصادر في ٥ رجب سنة ١٣١٦

ينازع بعضهم بعضا وينفسون على قبائل البربر الافريقية وانتهى ذلك بنزوع حزب عظيم الى تأليف حكومة مستقلة وفي أطواء ذلك علم القوم ان عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام الاموي فر من السفاح ولجأ الى قبيلة زناتة أعظم قبائل أفريقية فطمحت اليه الابصار وتعلقت به القلوب ثم استقدموه فقدم وكان في قرطبة رئيسان من لدن الدولة العباسية يتنازعان السلطة وقيادة العسكر فقاوماه أولا ثم سلما اليه وبايعه أهل الاندلس على الخلافة سنة ١٣٩ﻫ و٧٥٧م فصارت الخلافة خلافتين أموية في الغرب وعباسية في الشرق

كان خلفاء الامويين في الاندلس خير خلفاء المسلمين بعد الراشدين وأقرب في سيرتهم الى الشرع وأبعد عن الفسوق والبدع التي انغمس فيها أكثر أمويي دمشق وعباسيي بغداد فقد كان عبد الرحمن الاول عادلا مصلحاً وكان ولده هشام حليما محسنا وكان عبد الرحمن الثاني كجده هشام في الكرم والحلم ويزيده بالادب والعلم وكان محمد الاول والمنذر وعبدالله عادلين مصلحين وجاء في آثارهم عبد الرحمن الثالث فجمع أشتات الفضائل لانه أعطي القوتين العلمية والحربية فاجتهد في رفع منار العلوم والفنون وادخل في اسبانيا علوم بغداد وبنى المباني العظيمة التي كانت زينة قرطبة ومفخر الاندلس كلها وانقاد له المغرب الاقصى

سار هؤلاء الخلفاء كما قلنا سيرة حسنة بالنسبة الى غيرهم ولكن روح الشقاق والخروج على السلطان كان قد تمكن من الامة وطمع في الخلافة كل من له وشيجة رحم بالخلفاء أو عصبية تناط بعصبيتهم ولو جرى المسلمون على أصل الاختيار والانتخاب لسلموا من بلاء كبير .

عهد الخليفة عبدالرحمن الاول لولده الثالث هشام الاول فكبر ذلك على

أخويه الكبيرين سليمان وعبد الله فخرجا عليه وحاولا سلب الخلافة منه أو الاستقلال في بعض الاعمال (الولايات) فتغلب عليهما وعفا عنهما ثم خرجا بعده على ولده الحاكم وطلبا قسمة البلاد

أحدث هذا في نفوس العمال طمعاً في الاستقلال كانوا يخفونه في ابان القوة خوفا على مناصبهم ويظهرون كمال الطاعة والانقياد ويستمدون لنيل مطامعهم سرا ويتربصون بالخلفاء الدوائر فلما آنسوا منهم الضعف ظهر المضمر وتوالى العصيان في الاقاليم وكان أشد الولاة عيثا وفسادا في أرض الاندلس والي طرسوس فقد كان شديد الساعد بمساعدة سليمان وأخيه عبدالله على عصيانهما المتوالي الذي أشرنا اليه . ثم أضرم القتال في شمالي البلاد ولاة سرقُسطة ومريده وطُليطُلة وحوسقه باغواء رجل يدعى عمر وقد استقل عمر هذا وولده كالب بين بلاد المسلمين والافرنج نحو ثلاث سنين وادعى انه يعتبر الدياتين معا وكان ينتهز الفرصة ويضرم نار الثورة وقد غلبه الخليفة محمد ثم عاد ولم يزل يوالي الثورات حتى زلزل المملكة زلزالا، وأورثها خبالا ووبالا، وعصت قرطبة الحاكم بن هشام سنة ٢٠٢هـ ٨١٧م حين رتب لكلاءته خفراء جعل لهم مكوس مايرد من عروض التجارة فكانت ثورة اراد الخليفة العقاب عليها فانقض الناس على خفراته وقتلوا منهم عددا عظيما ، وقد كان الخلفاء بعد عبد الرحمن الاول يتخذون الخفراء من مغاربة الزناتة ثم أحضر عبد الله في سنة ٢٨٨هـ ٩٠٠م أرقاء سلاوونية من القسطنطينية فعلموهم حركات السلاح واتخذوهم خدما فاستراحوا بذلك من المشاجرات التي كانت تحصل بين الخدم من العرب والبربر وزاد ثقة الخلفاء بهؤلاء الخدم اعراضهم عن السياسة ولكن لما

رأوا الخلل والضعف في الدولة زجوا بأنفسهم في المنازعات السياسية كما فعل اقتالهم وأمثالهم في العباسيين، وقويت هذه الامراض الداخلية حتى ضعفت مزاج الدولة فلما جاءتها الصدمات الخارجية زعزعتها ثم دمرتها تدميرا

قلنا ان سيرة خلفاء الاندلس كانت أحسن من سيرة غيرهم في الجملة ولكن لا نقول انهم ساروا بالخلافة في منهاجها الشرعي وهو جعل الحل والعقد والنكث والفتل وسائر الشؤون العامة مقيدة بالشورى المتبعة كما كان الراشدون ولو فعلوا ذلك لما نزل بهم البلاء ولكن السلطة كانت محصورة في شخص الخليفة ومتى كان الامر كذلك فان الشقاء يكون أقرب الى الأمة من السعادة لانها تكون تابعة لشخص واحد اذا استقام استقامت واذا زل زلت أو زالت. وكذلك كان شأن هؤلاء الخلفاء فقد بدأ الضعف والانحطاط فيهم في عهد هشام الثاني لانه كان سيئ التدبير بعيداً عن السياسة والامر كله في يده فعجز عن مقاومة الاعداء فانحطت مهابة الخلفاء وخضدت شوكتهم واستفحل أمر الثوار والخارجين وكان الافرنج في أثناء ذلك في تقدم مستمر في الاعمال الحربية فتجرؤا على المسلمين وطفقوا يناوشونهم القتال وينتقصون بلادهم من أطرافها، وأولو الامر مشغولون بالفتن الداخلية وسائر الناس قسمان: الطلاء وقد أوغلوا في فنون الادب إيغالا صرفهم عن كل ما سواه بل قادهم الى الترف والانغماس في النعيم المضعف للنفوس عن الحرب والجهاد. والصناع والزراع وهم أتباع كل ناعق ولا سيما في الامم التي ليس فيها تربية قومية أدبية وليس لها رأي عام. وتربية الامة وتعميم العلم والتهذيب فيها وان كانا

من أهم ما جاء به الدين الاسلامي الا أن استبداد الخلفاء والسلاطين واستئثارهم بالامور العامة وتقصير العلماء والمرشدين ذهب بهذين الامرين اللذين هما روح الامم وحياتها

أما الخلافة الفاطمية فقد كانت شر خلافة أخرجت للناس تولدت فيها جرائم الفساد التي قضت على غيرها من أول عهدها كتفويض السلطة الى الوزراء والقواد واستخدام الدخلاء وجعلهم قواداً . فقد كان الخليفة الثاني « العزيز » أول من اتخذ وزيراً قرن اسمه باسمه وأول من استخدم الترك وجعل منهم قواداً فكانوا سلاً في رئة الدولة نمت جراثيمه رويداً رويداً حتى كان من أمره ما سنشير اليه قريباً .

صدمت هذه الخلافة الثورات من أوائل نشأتها أيضا فقد خرج على الحاكم وهو الخليفة الثالث قوم ادعى زعيمهم انه من ذرية هشام ابن عبد الملك فاشتعلت نار الحروب الداخلية وكانت سجالا ثم ظفر الحاكم بهم فأمات الزعيم شر ميتة . ومن سباتهم كثرة العهد في الخلافة الى الاحداث فكان ذلك مدعاة لتلاعب الوزراء والقواد بالامر فقد بويع الحاكم وسنه احدى عشرة سنة وكان الوصي عليه الوزير ارجوان فانفرد بالنفوذ وتجاوز الحد في الاستبداد، وولي المستنصر الخلافة في السابعة من عمره وكانت أمه أمة سوداء اشتراها أبوه الظاهر من يهودي فتصرفت بالامر كما أحبت وجعلت مولاها الاول مستشاراً فكانت الخلافة الاسلامية تدار بيد يهودية، واستخلف الحافظ لدين الله أصغر أولاده اسماعيل الظافر بأمر الله وسنه سبع عشرة سنة فاستبد وزيره العباس بالامر ثم ضاق ذرعا من استهتار الخليفة واسرافه في الخلاعة والشهوات ورأى ان عاره يمس

شرفه وشرف ولده لامتزاجهما به فأمر ولده ان يكيد له ويقتله ففعل ثم قتل أخويه به ليبرأ من تبعة قتله في أعين الناس وولي ولده الفائز وعمره خمس سنين وقيل ستتان!! ومما حكاه عنه المؤرخون انه جمع الامراء لمبايعته وحمله على كتفه ولما أمرهم بالطاعة والانقياد له صاحوا بالاجابة صيحة شديدة منكرة فزع لها الخليفة الحدث فبال على كتف الوزير! وصار يصرع بعد ذلك « فيارباه هل هذه هي خلافة النبوة التي يقوم بها دينك ويستقيم أمر عبادك ؟ »

وقد انحطت مصر في أيام الفائز هذا حتى كانت تعطي ضريبة عظيمة للصليبيين في القدس ليكفوا عن الاغارة على غزة وعسقلان . استغاث أهل القصر من وطأة الوزير عباس الثقيلة بصالح بن رزيك الارمني الاصل الشيعي المغالي فقدم الى مصر وتولى الوزارة بعد هرب عباس ولما مات الفائز أراد الصالح ان يولي مكانه شيخا من الفاطميين فأسر له في مجلس المبايعة أحد أصدقائه بأن سلفه في الوزارة كان أحسن تدبيراً منه لانه لم يسلم نفسه لخليفة لم يتجاوز الخمس سنين فاعتدها نصيحة وسمى الحدث عبد الله بن يوسف خليفة ولقبه بالعاضد لدين الله فنشأ مستعبداً للوزير صالح وتزوج ابنته وسماه ملكا ثم سلطانا وأشرب منه الغلو في التشيع وقد أحفظ لقب الملك أو السلطان قلوب أهل الخليفة على الوزير فأرسلت له عمته من ضربه ضربا مبرحا انتهى بموته (انظر الى الاعتناء بشرف الالقاب الضخمة عند أرباب العقول السخيفة فقد قتل الصالح لقبه مع انه لم يزده سلطة ونفوذاً)

أما سيرة هؤلاء الخلفاء ووزرائهم فقد كان العزيز أديبا شجاعا محبا للصيد ، وفوض أمر الجند إلى جوهر القائد فاتح مصر ومؤسس الازهر

وولى الوزارة يعقوب بن يوسف وقرن اسمه باسمه وأمر أن تكون المكاتبات الرسمية باسمه وتختم الاوامر بختمه فأحسن هذا الوزير السيرة وكان فاضلا مصلحا فحسنت حال البلاد في عهده ولكن تفويض الامر الى الآحاد اذا جاء بالخير يوما يجيء بالشرور أياما فقد ولي بعد العزيز ولده الحاكم فطغى الوزير أرجوان الوصي عليه وبغى كما قلنا آنفا ثم لما رشد الحاكم كان رشده عين الغي فانه لم يكد يستبشر العلم ببنائه (دار الحكمة) وما اجتلبه اليها من الكتب القيمة والباحث لكل قاري، وناسخ حتى غشيت العلم والدين والمسلمين والذميين ظلمات من ظلمه واستبداده وكفره وعناده المتولد ذلك كله من مرض في دماغه وخلل في عقله

فقد ظهر في عهده مذهب الضرارية نسبة لرئيسهم ضرار أستاذ حمزة صاحب الرسائل الكثيرة في بيان المذهب الذي يدعو الى عبادة الحاكم فنصرهم الحاكم ثم ادعى الالوهية وفتح سجلا لكتابة أسماء المؤمنين به فكتب بالتسليم له نحو سبعة عشر ألفا ولقد كانوا كلهم أو جلهم مكرهين لانه كان ينتقم أشد الانتقام ممن يخالفه ولكن مدرسته (دار الحكمة) ودعاته دعاة الفتنة قد أضلا خلقا كثيراً وتأسس بذلك مذهبه وثبت حتى ان في الناس من يعبده حتى اليوم !! فهل كان المسلمون بهذا الاستسلام مهتدين بهدي الاسلام !! حاش لله . أليس هؤلاء الرؤساء الضالون هم الذين شوهوا وجه الدين وانحرفوا بأهله عن صراطه المستقيم ؟ ألا يحق لمجموع الامة أن يقول في هؤلاء السادة (ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيراً) ؟

والحاصل ان الحاكم كان يسفك الدماء بغير سبب ويظلم أهل الذمة

بدون سند فقد هدم الكنائس في مصر والقدس ثم بنى كنيسة القيامة على نفقته وكان يأمر وينهي بما لا يعقل له معنى كالامر بسب السلف قولا وكتابة على الجدر بألوان مختلفة وكالنهي عن أكل الملوخية والجرجير وبيع الزبيب ، وقد جاء من بعده المستنصر وكان أذنا إمعة فاسقا ضعيف الرأي فكانت الخلافة اسما بلا مسمى وفي عهده ادعى رجل أنه هو الحاكم وكان يشبهه فتبعه قوم واجتمعوا عند قصر المستنصر وصاحوا هذا هو الحاكم فنكلت بهم الدولة .

وقد استبدت أم المستنصر بالاحكام وتلاعبت بتغيير الوزارة وخرج معز الدولة والي حلب على الخليفة وحاول الاستقلال فأرسل اليه الجيوش المصرية فغلبها ثم لم يشأ الهجوم على مصر ولكنه أرسل زوجته وابنه ليعقدا الصلح مع الخليفة فاستمال الخليفة جالبها البارع واستنزله عن حلب لزوجها !! . وخرج عليه الامير معز بن باديس في الغرب وجعل الخطبة باسم القائم بأمر الله العباسي فحاربه جيش المستنصر ست سنوات فدوخه ولكن نفوذ المستنصر انتشر حتى ان أمير اليمن عليا بن محمد الصالحي خطب باسمه بل ان الامير ارسلان السباسيري قائد جيوش الخليفة القائم بأمر الله العباسي رفض الطاعة لخليفته ورفع في بغداد العلم الفاطمي الابيض ودعا للمستنصر على منابرها سنة ٤٥٠ وفعل مثله أهل واسط والكوفة وأكثر المدن الشرقية الكبيرة واضطر القائم بأمر الله ان يوقع على صك يتضمن ان الحق في الخلافة كله للخلفاء الفاطميين ثم دب نفوذ المستنصر الى خراسان وشرقي بلاد فارس ولولا ان حاكم تلك البلاد رأى ان رسوخ قدم العلويين هنالك

يضره فأوقف سير نفوذهم وسار بجيشه الى بغداد فأعاد السلطة العباسية ـ لبلغ نفوذهم آخر بلاد العباسيين وأما مكة المكرمة فكانت تتنازعها السلطتان فتغلب هذه تارة وهذه تارة

لما قوي الخلل استفحل أمر الاتراك وكانت أم الخليفة استكثرت من أبناء جنسها السودان وجعلتهم مناصبين للاتراك فسفكت بينهما دماء غزيرة وكانت بلاد مصر قسمين الوجه القبلي « الصعيد » في قبضة السودان والوجه البحري في قبضة ناصر الدولة الوزير، وقد ضيق هذا على الخليفة بعد ما استنزف الاتراك ثروته ونهبوا قصره حتى لم يبق له ما يلبسه الا الاسمال الخلقة البالية التي لا تكاد تستر عورته ثم أشفق عليه فعين له مئة دينار في الشهر . ولما لم يبق للاتراك ما ينهبون اقتسموا المكتبة العلمية وكان فيها نحو عشرين ألف مجلد وكان لحاكم الاسكندرية ابن المحترق قسم منها بعثوا به اليه فنهبه العربان وأخذوا جلود الكتب للاحذية وأحرقوا الباقي!!!.

وقد اغتنم بدر الجمالي نهزة الخلل فاستقل في سوريا ثم استدعاه المستنصر للقاهرة مستنصرا به فجاءها وقتل امراءها عن آخرهم ثم أسرف في قتل أمراء القطر وأصحاب النفوذ فيه حتى أخضع البلاد فقلده الخليفة السيف والقلم وامارة الجيوش فانفرد بالحكم وسار سيرة حسنة في اصلاح البلاد وترقية الزراعة والتجارة وتشييد المباني الضخمة من المساجد وغيرها .

وقد خرجت صقلية (سيسيليا) في عهد المستنصر من سلطة المسلمين لاهمال أمرها مع خصبها وعظمها

وكان الآمر بأحكام الله مولعا بالملاهي مغرما بالنساء ولا سيما البدويات فقتله الباطنية وهو قاصد زيارة معشوقة له بدوية . وتولى بعده ابن عمه

الحافظ لدين الله وكان غرا بعيدا من السياسة ومذاهبها مقتنعا بالسلطة الدينية (الكاذبة) ومفوضا أمر الادارة الى الوزراء الذين قتل حسادهم خيارهم لقربهم منه . وتولى بعد الحافظ ابنه الظافر بأمر الله كما قلنا وكان منقطعاً لسماع القيان والاستمتاع بالحسان غير مبال بما يتهدد شرقي ملكه من الصليبيين وغربيه من أمير صقليه الذي زحف الى مصر . ثم انتهى هذا الخلل بمجيء الملك الحازم صلاح الدين الايوبي الذي أزال هذه الخلافة الفاسدة المضرة وأسس الدولة الايوبية خاضعة للخلافة العباسية الاسمية . وأقبح شيء حصل في خلافتهم الدعوة الى مذهب الباطنية ، فان الدعوة الى الدين من مقوماته وقد أهملها المسلمون في كل عصر وقام بها دعاة الفاطميين لاجل ابطال الاسلام وسنشرح ذلك في محله ان شاء الله تعالى

وأما العثمانيون فلم يكن قيامهم بدعوى الخلافة الدينية بل قاموا بعصبية الملك وأول من فطن للرياسة الدينية عاقل زمانه السلطان سليم ياوز، ولو تم له ما يتمنى لبني للاسلام بناء لا ينقض، فقد كان من أمانيه جعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية ومد نفوذه في البلاد الاسلامية كبلاد العرب والهند وسنبين ذلك وفوائده في فرصة أخرى ثم لم يكن لاسم الخلافة شأن في آل عثمان حتى جاء مولانا السلطان الحالي عبد الحميد خان أيده الله تعالى فاحيى هذا اللقب الشريف واجتهد في جمع كلمة المسلمين عليه وسنكتب مقالة مخصوصة في هذا الموضوع نبين فيها رأينا فيما تحيى به الخلافة الاسلامية الحياة الطيبة ان شاء الله تعالى